

سلطة القدر في الأمور الإنسانية وكيف تقاومها ؟

إنني أعلم أن لدى الكثيرين^(١) اعتقاد راسخ بأن الأمور في هذا العالم محكومة بالقدر والله، وأن الإنسان لا يمكنه تحسينها بحكمته، فهي أمور ثابتة لا يمكن تغييرها، ولا ينفع معها أي علاج... لذلك نجد أن هؤلاء الناس قد توصلوا إلى القناعة بأنه لا جدوى من إنهاك النفس كثيراً في الأمور... بل يجب تركها لحكم الصدفة.

وتضخم هذا الاعتقاد في عصرنا.. فإننا قد شاهدنا ونشاهد آثاره في كل يوم، من خلال التغييرات الكبيرة للأمور التي هي خارجة عن كل توقع إنساني.

وأنا شخصياً عندما أفكر فيها، في بعض الأحيان، أميل إلى الاعتقاد بصحتها نوعاً ما، لكن لكي يبقى هناك مكان لحكمنا الخاص (الذاتي الحر).. أجد أنه من الجائز أن يكون القدر سيد نصف تصرفاتنا... لكنه في الوقت ذاته يترك لنا حكم النصف الآخر، أو ما يُقارب النصف.

في الواقع.. إن هذا الاعتقاد... مثل تلك الأنهار المدمرة التي تجتاح الوديان والسهول عندما تغضب، فتدمر الأشجار والأبنية وتحمل معها التربة من مكان إلى آخر... فيفر الجميع هاربين من أمامها، ويخضع كل شيء لهجومها... دون أن يكون هناك قدرة على وضع حد لها في أي اتجاه... وبعد أن تهدأ الأمور ويكون كل شيء قد تم... لا يبقى إلا الأشخاص الذين يستطيعون التصدي له فيقومون ببناء الملاجئ والسدود بحيث أنه عندما يغضب في المرة القادمة، إما أن ينصرف في قناة.. أو أن يكون هجومه أقل ضرراً وفجوراً...

(١) - من يكونون؟ من بينهم الأسلاف مثل "تيوفراست ويسيرون و سالوسن" وربما "دانتي" لكن من الممكن التفكير أيضاً بأن "ميكافيلي" يتحدث عن رأي ذائع الصيت، مرتبط بالمشهد المسيحي القائل بأن العناية الإلهية هي مبرر الوجود هذا من جهة، ومن جهة أخرى مرتبط بالمتعقدين بعلم التنجيم الحتمي.

هذا المثال يبيّن بالضبط ما يحدث مع القدر الذي يثبت قوّته هناك حيث لم نقم شيء لمقاومته، وبلّغنا بغاراته إلى حيث يعلم بأننا لم نقيم في وجهه السدود والملاجئ لنتمكّن منه.

الآن إذا نظرنا إلى "إيطاليا" مهد هذه التغييرات، وإلى الحركة التي أعطتها هذه التغييرات، فإننا سنرى بأنها حقل دون ملاجئ أو سدود، ولو أنها احتمت خلف فضيلة مناسبة مثل ما كان في "ألمانيا" و"إسبانيا" و"فرنسا"، لما تسبب هذا الفيضان بالتغييرات الكبيرة التي حصلت، أو ربما لم يكن قد أتى هذا الفيضان أصلاً. ويكفيني قول هذا بالنسبة للتصدّي للقدر، بشكل عام، لكن إذا خُصنا أكثر في التفاصيل... سأقول بأن هذا الأمير سعيد اليوم... لكنه يمشي إلى هلاكه في الغد، دون أن يكون قد استطاع تغيير شيء في الطبيعة، واعتقد أن هذا قد تولّد من أسباب ناقشناها سابقاً مطولاً: هذا الأمير الذي يعتمد بشكل كامل على القدر، يسير إلى دماره عندما يتغيّر القدر. وذلك الذي تتلاءم طريقة تصرفه مع صفة الظروف، يكون سعيداً، وبالعكس من لا تتلاقى طريقة تصرفه مع الظروف يحيا تعيشاً مكثراً. فنحن نحكم على الرجال من خلال الأمور التي تقودهم إلى النهاية التي يسعى لها كل شخص، وهي المجد والثروة... وكلّ يسعى بطرقته... فواحد بحذر والآخر بطيش... والثالث بعنف وغيره بفن... والبعض بصبر وآخر بتسرّع وفي النهاية سيصل جميعهم لكن بطرق مختلفة.

إنّ رجلان متيقظان الأول يسعى لغايته والآخر لا، يتمتعان بسعادة متساوية ولكن بطرق متباينة... فواحد منهم حذر والآخر متهور. إن هذا يبين لنا صفة الظروف التي تلائم أو لا تلائم تصرف الشخص.. ومن هنا نجد أن هذان الاثنان اللذان عملا بشكل مختلف استطاعا الوصول إلى نفس النهاية... وبالعكس، قد يكون لدينا رجلين يعملان بشكل متماثل... فيصل الأول إلى الدمار والآخر إلى السعادة.

ومن هذا المنطلق أيضاً يتنوع الخير والسعادة. فبالنسبة لرجل يحكم بتيقظ وصبر، إذا تحوّلت الأمور والظروف بحيث يكون حكمه جيداً، فإن ذلك سيوصله إلى السعادة... ولكن إذا ما أدارت هذه الظروف والأمور له ظهرها فإن دماره سيكون قريباً... لأنّه كان لم يغير طريقة التيقظ والصبر التي سار عليها والتي لم تعد تلائم الظرف الآن. وليس هناك رجل حكيم لدرجة يعرف معها كيف يتوافق مع هذا... وذلك إمّا لأنه لا يستطيع الخروج ممّا دفعته إليه الطبيعة... أو لأنّه ناجحاً دائماً بالسير متمهلاً على

دربه... ولا يمكنه إقناع نفسه بأنه سيكون جيداً إذا ترك هذا الطريق^(١) لذلك نجد الرجل المتيقظ... عندما تواتيه ظروف تتطلب التصرف بتهور، لا يعرف كيف يقوم بذلك... وهكذا فإنه يسير إلى دماره، وحتى لو أنه استطاع تغيير الطبيعة (أي طبيعة تصرفه) مع الظروف والأشياء، فإن القدر لن يتغير.

كان البابا "يوليوس الثاني" متهوراً في كل تصرفاته، وقد كانت الظروف والأمور مناسبة جداً لنهجه هذا... فكان يحصل دائماً على نهاية سعيدة. ننظر إلى مبادرته الأولى ضد "بولونيا"^(٢)، عندما كان السيد "جيوفاني بوتيفو جليو" مازال على قيد الحياة، وفي ذلك الوقت لم يكن "أهل البندقية" راضون ولا ملك "إسبانيا". وكان آنذاك البابا "يوليوس" داخلاً في محادثات مع "فرنسا" بخصوص محاولته هذه. وبالرغم من تهوره... فقد سافر شخصياً ليقوم بهذه الحملة... وهكذا كانت حركته هذه نافعة، فقد تشتتت "إسبانيا"، وتعلق به "أهل البندقية" ورضخوا له بدافع الخوف. أما "إسبانيا" فقد كان دافعها هو رغبته باستعادة كل مملكة "نابولي".

وقد قام هذا البابا بجعل ملك "فرنسا" من أتباعه، لأن هذا الملك، عند رؤيته له في تحرك ورغبته بأن يكون صديقاً له ليساعده هذا الأخير في إخضاع "أهل البندقية"، رأى أنه لا يستطيع أن يرفض تقديم جيوشه دون أن يكون قد تعدى عليه بشكل واضح.

لقد استطاع البابا "يوليوس الثاني" أن يقود بحركة متهورة، ما لم يقدر بطريك آخر أن يقوده بكل الحكمة الإنسانية، فلو أنه انتظر إلى أن تكون النتائج مؤكدة وتنظيم كل الأشياء تام، لترك "روما". مثل ما كان أي بطريك في مكانه سيفعل، لما نجح أبداً، لأن ملك "فرنسا" كان سيجد ألف عذر، وكان الآخرون سيوحون إليه بألف خوف.

والآن سأترك لكم تصرفاته الأخرى... والتي هي متشابهة جميعاً وناجحة برمتها. فإن فُسر حياته لم يترك المجال لإثبات العكس. فلو أن ظروف مفاجئة قد واجهته وتوجب عليه فيها أن يتصرف بتيقظ وحذر لما

(١) - يشير "ميكافيلي" من جديد إلى أثر العادة في فهم نجاح أو فشل التصرف.

(٢) - دخل منتصراً إلى "بولونيا" عام ١٥٠٦م ١٢

استطاع الوصول إلّا إلى الدمار، لأنّه لن ينحرف عن هذه الوسائل التي مالت به طبيعته إليها.

وأختم حديثي بالقول: إن القدر والظروف متحوّلات ومتغيرات، لكن الناس مستمرّون بالتمسّك بطرقهم ذاتها... إنهم سعداء طالما أنهم يتوافقون مع الظروف والقدر، لكن التعاسة ستكون من نصيبهم عندما يختلّ هذا التوافق.

من جهة ثانية أرى أنّه من الأفضل لك، أيها الأمير، أن تكون متهوراً على أن تكون حذراً، لأن القدر امرأة لا بد من ضربها ومجابهتها عندما تُريد أن تُخضعها فهي بهذه الطريقة تنهزم أكثر مما تنهزم إذا تصرّفت ببرود. ولكونها امرأة فهي صديقة دائماً للشباب لأنّهم أقل حذراً وأكثر ضراوة ويعاملونها بجرأة أكبر.

إرشاد لأخذ "إيطاليا" وانتقادها من البربر

إذا بتأمل كل هذه الأمور التي ناقشناها سابقاً، وبالتفكير من قبلي شخصياً إن كانت الظروف الحالية في "إيطاليا" ملائمة لتكريم أمير جديد... وإن كانت تتوفر المادة التي تُعطي الرجل الحكيم الفاضل فرصة مناسبة ليدخل إلى "إيطاليا" الشكل والصيغة اللذان يُكرّمانه ويُسعدان شعبها. من خلال كل ذلك يبدو لي أن هناك مقداراً من الأمور ستساعد في إنجاح هذا الأمير الجديد. ولا أعرف وقتاً أكثر ملائمة لذلك من هذا الوقت... فإن كان كما قلبتُ سابقاً، من الضروري أن يكون الشعب "الإسرائيلي" عبداً في "مصر"، لتظهر فضيلة موسى، وأن يكون "الفرس" مضطهدين من قبل "الميديين" لمعرفة عظمة فطر وروح "سيروس"، وأن يكون "أهل أثينا" مشتتين لمعرفة نفوق "تيزيه"... وهكذا، فإنه من الضروري في الوقت الحاضر لمعرفة ميزة وفضيلة الفكر "الإيطالي"، أن تكون "إيطالية" مُصغرة إلى الحدود الحالية... وأن تكون عبدة أكثر من العبرانيين، ومُسخرة أكثر من "الفرس"، و"مُشتتة" أكثر من أهل "أثينا"، وأن تكون دون زعيم ودون تنظيم، ومُغتصبة ومهزومة ومجرّدة وممزّقة ومُداسة. وأن تكون قد قاست كل أنواع الدمار.

ومع أنّه في بعض الأحيان... كان يومض هنا أو هناك بارقاً يجعل الحكم ممكناً بأنّ هذا الوميض مبعوث من الله لمساعدتها (أي إيطاليا)، إلّا أننا في أعقاب ذلك كنا نرى دائماً بأنّ هذا الوميض (أي الشخص الذي بعثه الله لمساعدة إيطاليا) كان مُستنكراً من القدر^(١) وهو في أعلى درجات أعماله. لقد كانت "إيطاليا" تنتظر، وهي تقريباً دون حياة، ذلك الذي سيأتي ليضمّد جراحها ويضع نهاية لنهب "لومبارديا"، ويُطالب مملكة "نابولي" و"توسكان" بالفتية.. ويُداوي تلك الجروح المتقرّحة بفعل طول الزمان. إنها تدعو الله ليعث لها شخصاً يُحررها من هذه الوحشية وهذه المظالم والهجمات البربرية. وهي مستعدة تماماً للمسير خلف بيرق، بشرط أن يكون هناك من يُمسك هذا البيرق. وفي هذا الوقت ليس هناك من هو أكثر جدارة من منزلكم الكريم لتعلّق عليه آمالها. لقد اختاره الله والكنيسة بقدرة

(١) - تلميح إلى "سيزار بوجيا".

وفضيئته. إنها ستحافظ على ذلك الأمير الذي يستطيع أن يجعل من نفسه قائد هذا الخلاص^(٢) ولن يكون الأمر صعباً جداً إذا وضعتُم نصب أعينكم^(٣) أفعال وحياة أولئك الذين ذكرناهم أعلاه... ومع أن هؤلاء الرجال نادرين ومُدْهشون إلا أَنَّهُم يبقون رجالاً في النهاية... وكل واحد منهم كانت له فرصة أقل من الفرصة الحالية... فمحاوالتهم لم تكن أكثر عدلاً من هذه... ولا أكثر سهولة، ولم يكن الله صديقاً ومعيناً لهم أكثر مما هو صديقاً ومعيناً لكم. فهنا يوجد عدلٌ كبير... لأن الحرب عادلة لمن هم مجبرون عليها... والسلاح تقي ورع عندما لا يوجد الأمل إلا فيه. وهنا أيضاً الترتيب كبير ولأبعد الحدود وليس فيه صعوبات كبيرة. كل هذا شريطة أن تتخذوا قدوة لكم شخصاً من أولئك الذين عرضتهم عليكم... "موسى - سيروس... الخ" بالإضافة إلى ذلك نرى هنا أعمال خارقة لا مثيل لها مسيرة من الله عز وجل: البحر ينشق، والغيمة تحرس على طول الطريق، والحجر يُفرغ الماء من جوفه، وهنا تُمطر الدنيا منناً... إن كل الأشياء تُساعد في عظمتك... أمّا ما تبقى فيجب عليك القيام به بنفسك، لأن الله لا يريد أن يعمل كل شيء عنك لكي لا تفقد حرّية الاختيار، والنصيب من المجد الذي يعود علينا.

ويجب ألا نندّش من أن أحداً من الإيطاليين المُسمّين أعلاه لم يستطع عمل ما كنّا نأمل من فخامة منزلكم أن يعمل، وأنه أثناء سلسلة من الثورات والتخريبات الحربيّة في "إيطاليا" كان يبدو أنّه ليس لديها (أي إيطاليا) ميزة عسكريّة وذلك بسبب تنظيّماتها القديمة التي تنقصها الجودة. وما من شيء يُشرف الإنسان الذي ينهض من جديد مثل ما تُشرّفه القوانين والتنظيمات الجديدة التي يتوصّل إليها، فعندما تكون هذه الأشياء مؤسسة جيداً ولها عظمتها، تجعل من ذلك الإنسان الذي أوجدها يستحق الاحترام والإعجاب، و"إيطاليا" ليست مفترقة إلى من يقوم بعملية الإصلاح هذه، وتكون الفضيلة هنا كبيرة في الأعضاء إذا لم ينقصهم الزعماء^(١). في المبارزات ولقاءات الفرق الصغيرة يُظهر الإيطاليون تفوق كبير في القوّة والمهارة والحقق... لكن عندما يتعلّق الأمر بالجيش فإنّ وجودهم يتضاءل أمام غيرهم. وهذا نتيجة لضعف قادتهم.

(٢) - البابا "ليون العاشر" هو "جان دو ميد تشي".

(٣) - هنا يخاطب بالجمع من باب التفخيم والاحترام.

(١) - هنا "ميكافيلي" يقتفي أثر التشبيه العضوي لوصف القدرات العسكرية الإيطالية: اللفظ (كابو) يعني أيضاً (الرأس) مثلما يعني (القائد) يعود "الأعضاء" للجسم.

فمن لديهم معرفة يأبى أن يطيع أحداً... والمشكلة أن كل واحد يعتقد بأنه يعرف، وفي الواقع لا أحد متميز جداً لا بميزات شخصية ولا بالمصادفة والقدر... لدرجة يتنازل معها الآخرون له لذلك نجد بآته... خلال وقت طويل جداً... وخلال عدة حروب طالت ٢٠ سنة ماضية، عندما كان هناك جيش إيطالي بالكامل، أثبت هذا الجيش عدم جدارته، وهذا ما يشهد عليه أولاً "التارو" ثم "الإسكندرية" و"جيني" و"فيلا" و"بولونيا" و"ميسسترو"^(١).

إذاً، إن كان منزلكم الشهير يرغب بأن يلحق بهؤلاء الرجال المتفوقين جداً الذين أنقذوا مقاطعاتهم فيجب قبل كل شيء كأساس حقيقي لكل محاولة أن تتقوى بجيش خاص، لأننا لا يمكن أن نملك جنوداً أكثر وفاءً، وجديّة وجودة... ومع أن كل واحد منهم جيد، لكنهم مع بعض يصبحون أفضل عندما يرون أنهم تحت قيادة أميرهم، يُكرّمون منه ويقوّي علاقتهم به.

بالنتيجة، من الضروري أن يتجهّز الأمير بهذه الجيوش، لكي يستطيع مع الفضيلة الإيطالية أن يحمي نفسه من الغرباء، فبالرغم من أن المشاة السويسريون والإسبان يُعتبرون أقوياء مرعبين، إلا أن هناك عيوباً في كلاهما تجعل نظاماً ثالثاً قادراً ليس فقط على مجابهتهما بل أيضاً وثقاً من انتصاره عليهما لأن الإسبانيون لا يستطيعون أن يصمدوا في وجه الفرسان والسويسريون يجب أن يخافوا عساكر المشاة الأقوياء مثلهم عندما يلتقون بهم في معركة.

من هنا نرى وسنرى بالخبرة أن الإسبان لم يستطيعوا أن يُقاوموا الفرسان وأن السويسريون قد دُمروا بفرقة مشاة إسبانية. ومع أنه لم يكن لدينا معرفة تامة بهذه الحالة الأخيرة، غير أننا استطعنا أن نستخلص منها ما حدث في يوم "الرافين"، عندما تصدّى المشاة الإسبان لأفواج الألمان الذين لاحظوا نفس التنظيم للأفواج السويسرية.

وفي تلك الواقعة استطاع الإسبان الاندساس بفضل خفة جسدكم وبمساعدة دروعهم^(٢) بين رماح الألمان ليتواجدوا في الأسفل ويؤذوهم بسريّة وهدوء دون أن يجد هؤلاء مخرجاً أو علاجاً لذلك ولو تواجد الفرسان ليتصدّوا لهم لاستطاعوا أن يُجهّزوا عليهم جميعاً.

(١) - انهزيمات إيطالية في وجه الجيوش الأجنبية الفرنسية و الإسبانية: والبعض منها معاصر لتحرير (كتابة) هذا الكتاب. "التارو" ١٤٩٥، "الإسكندرية" ١٤٩٩، "كابو" ١٥٠١، "جيني" ١٥٠١، "فيلا" ١٥٠٩، "بولونيا" ١٥١١، "ميسسترو" ١٥١٣.

(٢) - بفضل الدروع الخفيفة التي كانوا يحملونها ١

إذا... بعد معرفة عيوب فرق المشاة هذه أصبح بإمكاننا أن ننظّم فرقة جديدة تُقاوم الفرسان ولا تخاف المشاة... وهذا ما سيتحقق من خلال تغيير الأنظمة ونوعية الجيوش. وهذه الأمور هي التي تُعطي سمعة وعظمة للأمير الجديد بعد أن يكون قد أعيد تنظيمها.

علينا ألاّ نترك هذه الفرصة تفوتنا... لكي ترى "إيطاليا" بعد زمن طويل، أنّ مُخلصها قد ظهر... وعندها لا يمكنني أن أصف بأيّ حبّ سيُستقبل في كل المقاطعات التي وقفت في وجه التجاوزات الخارجية، ولا بأيّ تعطش للنار... وبأيّ إيمان راسخ... وبأيّ شفقة ودموع... لكن أيّ الأبواب ستُغلق في وجهه؟ وأيّ الشعوب سترفض طاعته؟ وأيّ تطلّعات ستعارضه؟ وأيّ إيطالي سيرفض احترامه؟...

إن هذه السيادة البربريّة قد قززت الجميع... فيا ليت منزلكم الشهير يلتزم بهذا ويقود كل المشاريع بهذه العقلية. هذا الأمل لكي يُصبح الوطن عظيماً مكرّماً تحت شعاره... وتحت رعايته ويتحقق ما قاله "بترارك":

فضيلة ضد الثورة

ستأخذ السلاح والمعركة ستكون قصيرة

لأن القيمة القديمة

في قلوب الإيطاليين لم تمت بعد^(١).

(١) - هذه الأبيات مُختارة من أغنية " إيطاليا " ١٢٩

الفهرس

- مقدمة ٥
- تحية من "نيكولا ميكافيلي" إلى فخامة "لوران دي ميدنشي" الشاب ٣٣
- ١- أنواع الولايات وبأي الوسائل تُكتسب؟ ٣٥
- ٢-ولايات متوارثة..... ٣٥
- ٣-ولايات مُشتركة..... ٣٦
- ٤-لماذا لم تنور مملكة "داريوس" التي احتلها "الكسندر" على خلفائه بعد وفاته؟ ٤٤
- ٥-ولايات جديدة تكتسب بالأسلحة الخاصة والفضيلة ٤٨
- ٦-الولايات الجديدة التي نكتسبها بأسلحة الغير ولعبة القدر ٥٢
- ٧-من بين أولئك الذين توصلوا إلى السلطة عن طريق الشراسة. ٥٩
- ٨-عن السلطة المدنية..... ٦٤
- ٩-كيف يجب أن تُقاس قوى الولايات. ٦٨
- ١٠-ولايات كنسيّة..... ٧١
- ١١-كم نوع للجنديّة وجيوش المرتزقة؟ ٧٤
- ١٢-الجيوش المُلحقة - الجيوش المختلطة - الجيوش الخاصة..... ٧٩
- ١٣-ما يجب على الأمير فعله فيما يخص الجنديّة..... ٨٣
- ١٤-أشياء من أجلها يَلام الرجال أو يُمدحون.. وخاصة الأمراء ٨٦
- ١٥-عن السخاء والجود والإفراط في التقدير ٨٨
- ١٦-عن القسوة والرحمة ٩١

- ١٧-الأفضل أن تكون محبوباً على أن تكون مرهوب الجانب أو العكس..... ٩١
- ١٨-كيف يجب على الأمراء أن يلتزموا بعهودهم..... ٩٤
- ١٩-كيف يجب تجنب الاحتقار والحقذ..... ٩٧
- ٢٠-هل الحصون والأشياء الأخرى التي يقوم بها الأمراء يومياً نافعة أم ضارة ؟.. ١٠٧
- ٢١-ما يجب على الأمير فعله لكي يحصل على التقدير..... ١١٢
- ٢٢-عن وزراء الأمير..... ١١٦
- ٢٣-كيف يمكن التخلص من المتملقين..... ١١٨
- ٢٤-لماذا فقد أمراء إيطاليا مملكتهم..... ١٢٠
- ٢٥-سلطة القدر في الأمور الإنسانية وكيف نقاومها ؟..... ١٢٢
- ٢٦-إرشاد لأخذ " إيطاليا " وإنقاذها من البربر..... ١٢٦